بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس التاسع عشر **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:03\11\2021 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

في الكلام قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ(8) خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(9)﴾[1] اتضح لدينا بمقتضى هذا التناسق بين الآيات الكريمة، أن الإيمان لكي يثمر ويؤثر لابد أن يكون مقترناً بعمل الصالحات، حينئذ يكون لهؤلاء جنات النعيم، ويكون لهم أحسن الجزاء، وذكرنا بالمقارنة مع الآيات السابقة في المقلب الآخر، أن الباري تبارك وتعالى في المقلب الآخر عبر عن الجزاء والعقاب تارة بالعذاب المهين، وأخرى بالعذاب الأليم، على كل تقدير فقد أفرد العذاب، أما في هذه الآية المباركة فقد جمع الجزاء، فقالت الآية ﴿جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ كما أنه قد عرفها، واتضح لدينا الوجه من الجمع، الذي يرجع في الحقيقة إلى رحمته تبارك وتعالى على غضبه.

أما ما يرتبط بنكتة التنكير والتعريف، التنكير مقام الوعيد أشد من التعريف؛ لأن التنكير فيه شيء من الإبهام، فيبقى الذهن سارحاً في نوعية العذاب، مما يوقع الخوف والرعب في القلب، وهذا نظير الإيهام في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِ ما غَشِيَهُمْ﴾[2] لو قال –مثلاً– فغشيهم من اليم عشرون متراً، عرفنا أن ارتفاع المياه كانت بهذا المقدار، أما هذا الإيهام ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِ ما غَشِيَهُمْ﴾[3] مبهم، فيه من التهويل ما لا يوجد فيما لو صرح بمقدار ما غشيهم، كذلك فيما نحن فيه، عندما ينكّر العذاب يبقى حتى مع وصفه؛ لأنه بالوصف لن يصل إلى حد صار معرفة، وصار محدداً كاملاً، ففيه شيء من الإبهام الذي يؤدي إلى التهويل على المخاطب، هذا في مقام العذاب وفي مقام التهديد والوعيد من الأمور المطلوبة.

---

[1] لقمان 8-9
[2] طه 78
[3] طه 78

أما في المقابل باعتبار أن الجنة والنعيم قد وصف في آيات القرآن الكريم بأوصاف لا مزيد عليها، وذكرت أنواع الملذات والمنعمات، فجاء بالتعريف ليشير إليها، وأنها ليست جنة واحدة، بل هي جنات. ولا يحتاج إلى تهويل عليهم حتى يستعمل أسلوب التنكير، هذه هي نكتة التبديل بين وعيد أرباب ذلك المقلب، ووعد ارباب هذا المقلب.

من الأمور التي يمكن نقف عندها في هذه الآية المباركة، في المقارنة مع ما تقدم، هنا في الآية، كان هناك تركيز على علم وإيمان يستتبع عملاً، كما أن أولئك كان الذي يحركهم هو الجهل، فإذن في هذه الآية أيضاً هناك ترقي من الإيمان وما يستبطن من العلم والمعرفة، ترقى إلى وعملوا الصالحات، ثم جاء الجزاء ﴿لهَمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ في مقام تفصيل هذا الجزاء وما يرتبط به كان الباري تبارك وتعالى بصدد الرد أيضاً على أولئك الذين ﴿إِذا تُتْلى عَلَيْهِ آياتُنا ولَّى مُسْتَكْبِراً﴾ بالبيان التالي: أن هؤلاء الناس ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي﴾ هؤلاء الناس فيهم مجموعة من الخصال، بعضها ظاهرة وبعضها تستنتج من سياق الكلام:

من جملة الخصال البارزة: التولي في حال الاستكبار ﴿ولَّى مُسْتَكْبِراً﴾ وأنهم يفعلون هذا الفعل ﴿يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ لغرض ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الله تبارك وتعالى، وأن شرائهم ودفعهم الأموال الطائلة للإتيان بلهو الحديث ومقابلة القرآن بها، معناه أن هؤلاء يعتقدون القرآن من سنخ لهو الحديث، من سنخ أساطير الأولين، كما صرح بذلك في آيات أخرى من هذا القبيل، هذا المجموع أراد أن يرد عليه القرآن الكريم، فجاء وقال: ﴿وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ يعني أن هذا الذي نذكره هنا ليس أساطير وليس من لهو الحديث، بل هو وعد للباري تبارك وتعالى ثابت حق، لا يمكن التراجع عنه، ولا يمكن الخلف فيه ﴿ وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلا﴾[4] هذا أولاً.

ثانياً: هؤلاء كان قصدهم الاستهزاء بآيات القرآن الكريم، فكان المناسب أن يأتي بشيء يتناسب وأن يكون في مقابل الاستهزاء والذلة، فقال: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ فإذا كنتم تظنون أن شرائكم لهو الحديث يؤدي إلى الإذلال وإلى توهين آيات الذكر الحكيم فأنتم لا تعرفون شيئاً؛ لأن الله هو العزيز. وفعلكم كان صادراً عن غير علم، أما فعل الله سبحانه وتعالى هو صادر عن حكمة، أعلى درجات العلم

[4] النساء 122

والمعرفة، فيضع الشيء في مكانه المناسب، فلكم العذاب المهين والعذاب الأليم؛ لأن هذا من سنخكم وهذا يتناسب مع طبعكم، أما هؤلاء فلهم جنات النعيم؛ لأن هذا الثواب من سنخهم وهو الذي يتناسب مع جبلتهم وفطرتهم وطينتهم، والحكيم هو الذي يضع الأمور في نصابها الصحيح.

فإذن ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ وهذا كان على نحو التأكيد؛ لأن أولئك الطائفة من الناس بفعلهم، وبمقارنتهم بين الذكر الحكيم وبين لهو الحديث، يعتقدون أن الذكر الحكيم كلهو الحديث لا قيمة له، فأكد الباري بها ولم يكتف بهذا التأكيد، بل جاء بجملة أخرى تدل عليه، فقال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا﴾ وعد الله حقاً هذا تأكيد آخر.

في جانب العذاب قال عذاب مهين وعذاب أليم في الآيتين السابقتين، في جانب الثواب قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لم يأت هناك بالخلود أما هنا جاء بالخلود، ما هو السبب؟ وما هي النكتة في ذلك؟ ربما البعض يقول لا فرق بينهما؛ لأن في قوله ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ كلمة مهين تستبطن الخلود، غاية الأمر في جنات النعيم صرح بالخلود، هناك جاء بكلمة تستبطن الخلود.

لكن هذا الوجه ليس وجهاً عرفياً؛ لأن المهين وما فيه حقارة ومذلة وإهانة قد يكون مستمراً وقد يكون مؤقتاً، لا نسلم أن لفظ المهين يستبطن الخلود في النار، وإنما هذا التفريق وهذا التفنن والتبدل في التعبير أيضاً يصب في خانة "يا من سبقت رحمته غضبه" فلم يعبر هناك بالخلود، وترك نوعية العذاب منكراً لما ذكرناه سابقاً، وللإشارة إلى أن رحمته للمحسنين في غاية الوسعة، ولأجل ذلك لم يستعمل لفظ التبشير، ولم يقل وبشرناهم بجنات النعيم؛ لأن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن التبشير إنما يكون في أعلى المراتب، في القرآن الكريم نلاحظ أن التبشير يكون في أعلى المراتب، وأعلى المراتب هو ما ينتسب صراحة إلى الله سبحانه وتعالى، فنلاحظ مثلاً في قوله تبارك وتعالى في سورة التوبة ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ﴾[5] يعني لولا منه ما استعمل يبشرهم؛ لأنه أعلى المراتب، وما يكون صريح الانتساب إلى الله سبحانه وتعالى﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَ رِضْوَانٍ وَ جَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾[6] لولا منه لما وصلت هذه البشارة إلى أعلى المراتب.

---

[5] التوبة 21
[6] التوبة 21

أما في جانب أولئك الذين يشترون لهو الحديث كان التبشير عبارة عن الاستهزاء والتهكم، فبما أنها استعملت في هذا السياق للاستهزاء والتحكم، لا يكون مناسباً أن تستعمل مع أهل الإحسان الذين لهم جنات النعيم، فباعتبار أنها استعملت في ضد معناها، وبشرهم يقصد منها الإنذار لا التبشير، فلا يبقى مناسباً أن تستعمل في جنات النعيم، حتى لو قلنا بأن هذه الجنات بالنتيجة هي عطية من الله سبحانه وتعالى فتنتسب إليه، فيصح أن نستعمل البشارة، لكن غاية الأمر لكونها استعملت في سياق متقدم في ضد معناها لا يبقى مناسباً أن تستعمل مع هؤلاء ﴿خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

الآية العاشرة كأنه قد يفهم أن البحث المتقدم انتهى، ودخلت السورة في مقطع جديد، حيث قالت الآية العاشرة: ﴿خَلَقَ السَّماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَميدَ بِكُمْ وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دابَّةٍ وَأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَنْبَتْنا فيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَريمٍ﴾ الآية للوهلة الأولى قد يقال الآن هذا مقطع جديد يريد الباري سبحانه وتعالى أن يذكر آياته في صفحة الوجود، لكن في الواقع هذا المقطع له ترابط مع المقطع السابق، وجاء كدليل مستحضر أمام الأذهان ليثبت أن الله هو العزيز حكيم، كما أنه في تدبيره لهذا الكون في خلقه للسماوات والأرض، وفي تفصيله لأنواع مخلوقاته من الحيوانات والكائنات الحية، في تنظيمه لعالم النبات كان عزيزاً حكيماً، كذلك سوف يكون في مقام العقاب والجزاء والثواب متصفاً بالعزة والحكمة، فعزته لأنه لا يحتاج إليكم، وحكمته أنه يدبر كل شيء بحسب ما يناسبه، فكان هذا المقطع وإن جعلناه مستقلاً، لكنه مترابط في حقيقته الإثباتية لبعض المفاهيم التي قد تقدمت في المقطع السابق، هذا على نحو الاجمال وأما على نحو التفصيل يأتي عليه الكلام.